

الخوف من الله

الحمد لله معز من أطاعه واتقاه ، ومذل من خالف أمره
وعصاه، مجيب دعوة من دعاه، وهادي من توجه إليه
واستهداه، سبحانه من إله عظيم تفرد بكماله وبقائه، وعم
بإحسانه وآلائه، أحمدده سبحانه حمدا يملأ أرضه وسماه،
وأشكره على سوايغ نعماه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له ولا معبود بحق سواه شهادة أدرها ليوم لا ينفع فيه
والد ولده ولا ولد أباه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده
ورسوله اصطفاه ربه واجتباها، وقربه وأدناه ، أناله من القرب
والإكرام ما لم ينله بشرٌ سواه، اللهم صلي وسلم على عبدك
ورسولك محمد وعلى آله وأصحابه ومن نصره وآواه واقتفى
أثره واتبع هدااه.

أما بعد:

فأوصيكم . أيها الناس . ونفسي بتقوى الله عز وجل ، فاتقوا
الله رحمكم الله ، فبتقواه تُنال الدرجات ، وتركوا الأعمال ،
وتزوّدوا من ممرّكم لمقرّكم ، فأنتم في فترة الإمهال ، فالدنيا
غرارة مكّارة ، والموت آت لا محالة ، والأجل قريب ، والأحمال
ثقال . فاغتموا . رحمني الله وإياكم . سُويّعات أعماركم ، فالأيام
فانية ، ولسوف يندم أصحاب القلوب القاسية ، وطهّروا درن
الذنوب بفيض العبرات ، واستثيروا رقة القلوب بذكر يوم
الحسرات ، فالناس فيه سكارى من طول الوقوف ، حيارى من
هول يوم مخوف ، ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾
[الحاقة:18] .

أيها المسلمون:

الخوف من الله عاطفة تنبع من حسن معرفته ، وكمال العلم به
، فهي ليست وجلا مبهما لا يجرى مأتاه أو نتائجه ، بل
الخوف شعور واضح بجلال الخلاق العليم ، وما ينبغي إكناؤه
له من مهابة ، وإعظام . وكيف لا يخشى جبار السموات
والأرض الذى بيده ملكوت كل شئ ، والذى لا تماسك شئ

إلا بإيجاده وإمداده ، والذي لا يعترض غضبه شيء إذا أعلن
غضبه على أحد“ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك
المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك
السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل
شيء قدير .”

إن الإنسان عادة يشعر بانتفاء ذاته أمام من تبهره عظمتهم ،
وهذا ما يسميه علماء النفس :الشعور السلبي بالذات ، وهو
شعور يشترك مع انفعالات نفسية أخرى ، فيكون عواطف
الإعجاب ، والتهيب ، وما أشبه ذلك . وأحق من يقف البشر
بساحته وهم مفعمون بالخضوع والاستكانة ، والزلفى
والاستجداء، هو الله جل شأنه الذي ترجع إليه أمورهم كلها
فبيت فيها بتا لا معقب عليه“ أم من هذا الذي هو جند لكم
ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور أم من هذا
الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور.”

وليس أساس الشعور بالخوف من الله هذا وحده ، نعم إن المرء يفرق من الهزيمة ومن الفقر ، ويقف قلقا مضطربا أمام من يستطيع أن يوقع به شيئا من ذلك ، لكن بناء الخشية على ذلك فقط أمر لا يليق . إن الخوف يرتبط بالمعرفة ، فإذا رأيت امرءا يتعرض لتيار كهربائي صاعق ، أو يتوقف أمام قطار حديدي منطلق فهو إما جاهل أو مجنون .

إن العلم بخصائص الأشياء يُهَيِّئُ على صاحبه التصرفات المناسبة . ومن عرف الله معرفة اليقين ، انمحت من نفسه كل آثار الجرأة والبرود، وساورته بين الحين والحين مشاعر الوجع والحذر . وهي مشاعر لا يستغنى عنها حي في حكم نفسه وضبط سلوكه . ثم هي الباعث الدائم على استرضاء الله ، وفعل

ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر“ إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه . ”

عباد الله : إن البشر لهم في جنب الله زلات مخوفة ، وكم يقترفون من الرذائل التي تجر عليهم الويل ، لأنها محادة لله واستهانة بحقه ، وعمى عما يجب له . ولو أن المعصية تلقى جزاءها العدل على عجل لخُسف بآتيها ، وذاق للفور عقبي جهله وغروره“ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة .”

ولكن الصبور جل شأنه يمنح الخطائين فرصا واسعة كي يعودوا لرشدهم ويعتذروا لربهم ...“ .ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .”
فمن الجائر أن تنفجر في أجسادهم مراجل الغضب الإلهي بغتة ، وهم سادرون في غيهم فلا ينقضي منهم أحدا ، ولا تدع لهم وسما ولا رسما ... وقد قص علينا المولى في كتابه أخبار الأمم الأولى ، وكيف هانت على الله لما أهانت أمره ، وكيف نكل بها لما نكلت عن الصراط المستقيم“ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا

القوم الخاسرون أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن
لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون”

الخوف من الله أيها الأحبة، عاطفة تدل على شرف النفس ،
ويقظة الحس ، وامتلاك الزمام فى الساعات الحرجة ، وإنه
لرجل جدير بكل احترام ومثوبة هذا الذى يستمكن مما يشتهى
، ثم يمتنع عنه وهو خالٍ لا لشيء إلا لأن الله يراه .علام يدل
هذا المسلك؟ .إنه يدل على إيمان بالله عميق ، وعلى أن ذلك
الإيمان يقظان ليؤدى واجبه كالحارس الأمين ، وعلى أنه لما
استثيرت النفس نهض إليها ، وفرض وجوده وحده فحسم
نوازع الشر ولذلك جاء فى حديث السبعة الذين يظلهم الله ،
يوم لا ظل إلا ظله ...` .!ورجل دعتة امرأة ذات منصب

وجمال ، فقال :إنى أخاف الله .`

معاشر الأحبة: وهناك من يتعد عن مثل هذه الجريمة حرصاً على سمعته ، وقهراً لشهوته ، وهذا السلوك وإن كان شرف نفس إلا أنه ليس أثر الإيمان الذى يجب أن يملأ أرجاء النفس ، وأن يسيطر على بواعث الفعل والترك فيها.

نعم ، هو شرف لأن الذى يدع رذيلة ما ، حتى لا يقفه الناس موقف تثريب وتقريع ، أفضل ممن يغلبه هواه ، فلا يبالي ما يلقى من ذم . إلا أن سيرة المؤمن الذى يخاف الله أشرف وأحق بالتنويه ... إذ أنه ترك الإثم هنا لسبب أجلّ وهو الخوف من جلال الله . ثم إن المؤمن الذى يعرف الخير والشر ، والحسن والقبيح من لسان الشارع لن يضل فى معرفة العيب الذى يتركه ، والخير الذى يفعله .

إن مخافة الله بترك ما حرم هى الأساس الأعظم فى تكوين الشخص الشريف المأمون . ومن الخطأ حسابان الخوف وحده هو الحاجز عن الشر ، والدافع إلى الخير ، إن الواقع فى حياة المؤمن غير هذا ، والمفهوم من طبيعة الإيمان غير هذا ... فقد

يترك المرء المعصية حياء من المنعم ، أو رجاء ما عنده ، أو شعورا نفسيا وعقليا بدمامتها ، أو حبا غالبا لله الذى أمر ونهى . والمؤمنون ليسوا سواء فى هذه البواعث ، بل المؤمن الفذ تختلف أحواله فى استقبال ما يعرض له ، فقد يفعل الشيء أو يتركه بدافع الرغبة حينما وبدافع الرهبة حينما ، وبدوافع أخرى حينما آخر . والخوف من الله دافع بارز فى حياته من غير شك ، وهو دافع معقول ، فمن ظن الخوف لا يعرض للبشر أصلا فهو مبطل ، ومن ظن الخوف من أى شيء أنفس معدنا ، وأرقى دلالة من خشية الله فهو كاذب . ومن ثم كان الخوف من الله ركنا فى الإيمان به“ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا . ”

ويكاد الخوف يكون وحده العامل الحاسم فى كثير من المواقف القلقة ، والعاصم المنجى عن ثوران بعض الغرائز العنيفة وجماحها الشديد . لاسيما و أن الخوف وليد المعرفة فكلما اتسعت معرفة المرء لله ازداد مهابة له ، وحذرا من مخالفته ، وإكبارا لحقه . عن عائشة رضى الله عنها قالت :

صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً فترخص فيه ، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه فكأنهم كرهوه ، وتنزهوا عنه ، فبلغه ذلك فقام خطيباً فقال : ما بال رجال بلغهم عنى أمر ترخصت فيه فكرهوه وتنزهوا عنه ، فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية . وفى خوف الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه ، وفى تخويف المسلمين عامة من بطش الله وعذابه نقرأ قوله تعالى : " قل إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ."

ألا فاتقوا الله رحمكم الله ، واقدروه حق قدره ، فله در أقوام خافوا من الله على قدر قدرته عليهم ، واستحيوا منه على قدر قربه منهم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

" إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ، وأسروا
قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور، ألا يعلم من خلق
وهو اللطيف الخبير"

بارك الله لي ولكم...

الحمد لله حمد من خافه واتقاه، أحمد سبحانه وأشكره، وأتوب
إليه وأستغفره، لا يعز من عاداه ولا يذل من والاه، وأشهد أن لا
إله الله وحده لا شريك له، ينصر من نصره، ويغضب لغضبه
ويرضى لرضاه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله،
وخيرته من خلقه ومصطفاه، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى
آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد : فاتقوا الله عباد الله، وتزودوا من دنياكم لأخراكم،
فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع
نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى.

معاشر الأحبة: لقد تضمنت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم نماذج إنسانية لأثر هذا الخوف العالى فى تطهير السلوك الإنسانى ، وقيادته إذا اضطرب نحو الصراط المستقيم .

إن امرأة قست عليها الحاجة حتى ألجأتها إلى التفكير فى تسليم نفسها لمن يملكون المال ولا يملكون الخلق وأولئك فى الحياة كثير .! فلما واجهت المكروه ارتعد بدنها ، وتلوى الشرف المكظوم فى نفسها فلم تملك إلا البكاء ... عن ابن

عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله . فأنته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها . فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت . فقال : ما يبكيك؟ . قالت : لأن هذا عمل ما عملته ، وما حملنى عليه إلا الحاجة . فقال : تفعلين أنت هذا من مخافة الله ! فأنا أحرى . اذهبي فلك ما أعطيتك ، ووالله ما أعصيه بعدها أبدا . فمات من ليلته ،

فأصبح مكتوبا على بابه . إن الله قد غفر للكفل فعجب الناس

من ذلك .

إن المرأة الطهور سر هذا التحول في نفس رجل قضى أغلب عُمره في الآثام ، ثم سرت في روحه عدوى الخير والعفاف والتقوى فأقلع عن غيه ، واجتث أصول الشر من قلبه ، وغيره الخوف من الله ، فألى على نفسه لا يعصيه أبدا . فلها أدركه الأجل وهو على هذه النية الجازمة كانت توبته قد غسلت خطاياها ، فمات مغفورا له !!

ألا إن خشية الله شيء عظيم!!...وإن النذر لتلاحق في آيات الكتاب العزيز كي تشعل في الضمير هذا الشعور الهادي فلا يتعثر المرء ولا يضطرب . وإيقادا لهذه الشعلة ، وارتقابا لما يعقبها من آثار سجلت السنة النبوية قصة غريبة لرجل طالت إساءته ، فلما احتضر اختلط في نفسه أمران : خوفه من عقبي ما فعل في ماضيه الطويل ، وجهالته الذي حيره في وسيلة للخلاص منه .!فماذا يصنع؟ امتزج خوفه وجهله في عاطفة ساذجة، ووصري جمع أولاده على تنفيذها بعد موته

قال عليه الصلاة والسلام ` :كان رجل يسرف على نفسه
فلما حضره الموت قال لبيته :إذا أنا مت فأحرقوني ، ثم
اطحنوني ، ثم ذروني في الريح ، فوالله لئن قدر الله عليّ
ليعذبني عذاباً ما عذبه أحد . فلما مات فُعل به ذلك ، فأمر الله
الأرض فقال :اجمعي ما فيك ففعلت ، فإذا هو قائم .فقال :ما
حملك على ما صنعت؟ قال :خشيتك يا رب ، أو قال :
مخافتك ، فغفر له .`

ألا فاتقوا الله ربكم، واخشوه حق خشيته، وخافوه حق مخافته،
احسنوا في أقوالكم وأعمالكم، وابدوا ربكم كأنكم ترونه، فإن
لم تكونوا ترونه، فإنه سبحانه يراكم، ويعلم ما تكن صدوركم
وما تعلنون.
ثم صلوا وسلموا...

موقع الشيخ نبيل الرفاعي

<http://www.nrefaei.com>